

أمة "اقرأ" لا تقرأ.. ولا تحسب

عمر بن قينة

الراية القطرية

2006-11-23

من سخرية الأقدار كما يقال إصرار أمة القرآن علي العودة إلي جاهليتها، حتّي تجاوز (تنازها) بالألقاب الفضاء القبلي والعشائري إلي الدول، فانطلق هذا (التناز) بين الأنظمة - واتسع داخلها بين القوي والأحزاب والجمعيات - مشغولة بالتآكل الداخلي، بفعل السفهاء فيها الذين تحوّلوا الشعوب تحت أقدامهم قطعانا تتصارع علي مصالح ظرفية، فتتزاحم علي كلاً وماء، وهذه حالهم التي لا يغيرها الله بسنن كونه حتّي يغيروا ما بأنفسهم، وهو تغيير لم تلح أماراته في أمة غارقة في (رفاهيتها) و(بذخها) و(استهتارها) بنعمة (نفظ) صار نقمة تشجع علي الكسل والتواكل، والركون إلي الدعة والجهل، لا تحسن تسيير أموالها بنفسها في اجتثاث الأمية التي تنتسج في شعوبها، تعاضم شقّاقها: (أمية حرف) و(أمية فكر) مما يختصر (التخلف) في أبشع صورته، فتكبر الصورة البشعة لمتخلف يمتطي أفخم سيارة وأحدثها في باديته أو يتسكع في (يخت) وهو لا يفقه أمراً من (حرف) ولا (فكر) رغم (الزعيق) الدائم في القنوات الإذاعية والتلفازية ادعاء حرب وهمية لفظية علي (الأمية) التي تزداد اتساعاً بازدياد (النمو) الديمغرافي واطراد، وقيم الكسب المادي تستشري بين الشعوب علي حساب القيم الحضارية والإنسانية السامية التي تأتي (القراءة) حجر الزاوية فيها، والفكر روحها، ليكون العقل رائدها في تصريف الأمور: سياسة واقتصاداً وثقافة وتنمية اجتماعية، وارتقاء بعقل الإنسان وفكره وسلوكه.

انتبهنا إلي هذا المآل في أمة (اقرأ) التي لم تعد تقرأ، بل تناصب القراءة عداء مكشوفاً، أليس كلّ من جهل شيئاً عاداه ووقف له بالمرصاد في كلّ منرج؟ فهل نعجب في النهاية لعقد تنخر معظم السياسيين في الوطن العربي من القراءة، ومن الذي يقرأون؟ معظمهم في مختلف المواقع في السلم، من أعلاه إلي أدناه، في الإدارة السياسية وما تبعها وما ارتبط بها، حتّي قال رأس أو رئيس يوماً لشعبه المشغول بهموم بطنه: إن (مرقعا) بالنسبة إليه أهمّ من جامعي، أي مفكر، أي متعلم؟! كيف لا يهجر أبناؤنا مدارسهم وجامعاتهم التي تجعلهم غرباء في أمّتهم؟ أمة تستمرئ العيش الهين، والكسب السهل، وتستطيب شرائح فيها جني المال الحرام من (رشوة) و(نهب مصارف) وسرقة مال عام، و(ترويج مخدرات)! وتكره القراءة والقارئ، حتي بات قارئ الجريدة أو الكتاب، في (حافلة) أو قطار، أو في قاعة انتظار بإدارة يلفت الأنظار إليه!

هكذا أمة (اقرأ) لا تقرأ ولا تفكر ولا تحسب، وهي التي كرمها الله بأمر القراءة كرمز تحضّر، وارتقاء روحي وفكري، كرمها بذلك بنزول الوحي علي نبيّه الكريم اقرأ باسم ربك فربط سبحانه وتعالى القراءة بالقلم أداة للعلم والمعرفة، لإدراك الجديد الجليل المفيد اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم (سورة العلق، الآيات: 3،4،5).

نزل هذا في أمة (اقرأ) فقرأت في فجر حياتها الروحية، وارتقت وتطوّرت وهي مدركة لأبعاد الذكر الحكيم في إجلال القراءة وأدواتها ثم نتاجها: ن والقلم وما يسطرون (سورة القلم، الآية: 1) والطور وكتاب مسطور في رقّ منشور (سورة الطور، الآيات: 1، 2، 3) فصدرت للعالم كله العلوم الإنسانية، والتطبيقية، فتعلم العالم كله وهو يخرج من تخلفه في القرون الوسطى: بالعربية الرياضيات والطب والهندسة، والفلك، وغيرها، وسرعان ما انطلق هذا العالم ونكصنا، قبعنا، بل عدنا القهقري، (نبدع) في (الإنتاج البشري) فينجب العرب الملايين يقذفونها بين (برائن) الجهل والتخلف، حتي صرنا كما مهملاً، ممّا أدركه نبينا الكريم محمد صلي الله عليه وسلم كغناء السيل؛ فتوقع لنا هذا المآل السيئ الذي صنعناه بأيدينا لفعل السفهاء فينا، فتقدّم الآخرون في كل شيء وتأخرنا مسافات في كل شيء، أضحوكة لأعدائنا التقليديين، وألوعة يعبث بنا وبمصائرنا أعداؤنا الجدد غير التقليديين، لا يعبأ بنا أحد، حاضرين، كما لا يذكرنا غائبين، بل نحن في عداد الأموات محسوبين!

لا حاجة للسؤال إذن: لماذا تقدّم غيرنا الذي كان غارقا في أحوال الجهل والامية، وتأخرنا نحن الذين نزل فينا الأمر الإلهي بالقراءة والعلم والكتابة للتطور والازدهار، بقيمنا الروحية وقوتنا المادية.

فلا عجب إذن من حالنا ضحية تاريخ صنعه فينا السفهاء، ويبدعون فيه بجهلهم وجبروتهم، يضيقون بالحرف، بالقلم لأنه نور، وهم يرهبون الضياء، يستطيبيون العيش في الظلام والظلمات حيث قذفوا بالشعوب، قذف الله بهم في جهنم، وألبسهم في الحياة ثوب الذلّة والصغار !

لا عجب إذن في هذه الحال كما قلت ذات مرّة أن يحصي العالم منذ نحو ثلاث سنوات أفضل خمس مئة جامعة (500 جامعة) في أنحاء العالم، ليس بينها جامعة عربية واحدة، لكن بينها سبع جامعات إسرائيلية (7 جامعات)؟!

غير بعيد عن هذا ما نشر منذ بضعة أسابيع أو بضعة شهور، ربّما عن الدول العربية المقموعة القابضة في جهلها، من (احتلالها) أدنى الدرجات، في ميدان الاهتمام بالرياضيات، بينما احتلت إسرائيل الدرجة الأولى في (تكنولوجيا المعلومات)؟! وحقائق الواقع تصفنا يوميا، فمنذ بضعة شهور أيضا ورد في الأخبار أن انتشار الإنترنت حتي عام 2005م لم يتجاوز أربعة في المئة (4%) من سكّان هذا الوطن العربي التعيس المقموع في مقابل خمس وسبعين في المئة (75%) في الدول المتقدمة، حيث قفز قطاع التجارة الإلكترونية عالميا خطوات صاعقة، ويرجع البعض تخلفنا المريع هنا إلي الفجوة الرقمية بيننا وبين المتقدمين إلي انعدام البنية التحتية للاتصال والمعلومات .

هل تبقي بعد هذا حاجة لسؤال: لماذا هزمتنا (إسرائيل) الناشئة (أمس) من عدم، هزمتنا مع تاريخنا مجتمعين أجمعين، فبات (الجميع) أخيرا في النهاية يخطبون ودّها، إن لم يكن هذا الجميع كلهم في (العلن) فالباقي في السرّ، خضوعا لأمريكا (نفسها) راعين لها ساجدين، والله لا ينصر المفسدين أبدا ولا المتواكلين، ولا يهدي الظالمين؛ فيسلط عليهم لظلمهم ظالمين آخرين، تلك سنة الله في خلقه، في الآخرين مثل الأولين، لتدمير سائر الظالمين أجمعين، وما الله بظلام لأحد في العالمين !